البعد المغاربي في المدونة التراثية :
قراءة في منظومة مرثية ابن أبي جمعة الوهراني*

إن مسألة الحفاظ على الهوية المغاربية هي في الحقيقة دعوة إلى خلق وربط أوصال الفكر التراثي المغاربي، التي لها أسس ضاربة جذورها في عمق التاريخ العربي الإسلامي، ومن هنا جاءت هذه الدراسة البسيطة لتسلط الضوء على الرؤى والمفاهيم المغاربية التي لا تكاد تنفصل عن المفاهيم المشرقية في أصولها، وضوابطها، وهي محاولة لفهم طبيعة النفس المغربية وعلاقتها بالمجتمع المغربي وفكره الـــذي أصبح فيما بعد منبرا ذوإشعاع علمي ينافس الحواضر المشرقية ومدارسها.

فالرثاء فن يعبر به الشعراء عن عواطفهم اتجاه من فقدوه من أهل أوبلد أومجد؛ وله أنواع كثيرة منها: الرثاء الرسمي، ورثاء النفس والأهل، ورثاء العلماء والأصدقاء، وهناك رثاء المدن وثـــاء الملـــك، ...كما يمتاز الرثاء في كنهه ومضمونه بأنه فن يستهل عادة بالتعبير عن الأحزان، ويؤبن المرثـــي، وقـــد يصدر الشاعر حكما عن الموت والحياة، ويذم الدنيا ويتأسى بمن سبقه إلى الدار الآخرة.

وإليك أخي الباحث نموذج من تلك الفنون التي برع فيها العلماء المغاربة على شاكلة المشارقة، ونقصد بذلك فن الرثاء وعمقه الدلالي لتبيان واقع الحياة الاجتماعية والعلمية ببلاد المـــشارقة عمومـــا والمغاربة خصوصا.

التعريف بصاحب القصيدة:

اسمه وكنيته: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن بُوَجْمَعة المغراويّ الوَهْرانيّ، عرف بشقرون، فاسمه محمد وكنيته أبوعبد الله، وأحمد اسم أبيه وقد كان من أعلام وقته. وبوجمعة اسم جدّه، ولا يزال هـــذا الاسم جارياً في المغرب الأوسط إلى الآن. ولُقّب «شقرون» لأنه كان أشقر اللون، ومما يذكر من صفاته الخَلْقيّة أنه كان أحمر العينين جهير الصوت.

«المغراوي» نسبة إلى مغراوة وهي قبيلة من زناته، إحدى القبائل الكبار مـــن برابـــرة المغرب، ومجالات زناته هي الجهة الغربية من المغرب الأوسط[1]، ومنه يفهم نسبته إلى وهـــران المدينة المعروفة، فإنها تقع في مجالات مغراوة. والفاسي نسبة إلى فاس لأنه توفي بها.

نسبه: شقرون الوهراني شريف النسب لأن بوجمعة جده هوابن محمد بن عمر الهـــواري دفين وهران. وقد وصلنا النسب الشريف للشيخ الهواري كاملاً ذكره محمـــد بـــن يوســـف

---

* أ. بن عمر حمدادو– قسم الحضارة الإسلامية– كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية– ج. وهران.

الزياني. فنسب محمد المغراوي هو: «محمد بن أحمد بن بوجمعة بن الولي محمد بن اعمر بن عثمان بن عياشة بن عكاشة بن سيدي الناس بن أحمد بن محمد بن علي بن الأمير أمغار ابن أبي عيسى بن محمد بن موسى بن سليمان بن موسى بن محمد بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم»[2].

ويبدو أن نسب الشيخ شقرون كان مشهوراً مستفيضاً في وقته، يدل على هذا ما جاء في إجازة الشيخ الدقون له فإنه قال فيها:

أجاز لك الدقون يا نجل سيدي أبي جمعة والآل كل الذي روى[3]

يعني يا نجل سيدي «أبي جمعة» ونجل «الآل» أي آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ولا منافاة بين شرف النسب والانتساب إلى مغراوة نسبة نشأة، وقد أورد الزياني في «دليل الحيران وأنيس السهران» ما يعضد هذا، فإنه قال عن الشيخ الهواري: «... ولما نشأ في مغراوة وتربى في هوارة قيل له تارة المغراوي وأخرى الهواري وهي الأكثر»[4]. وما قاله الزياني في الشيخ الهواري، يقال في الشيخ شقرون الوهراني، لأن الهواري أبوجده بوجمعة.

ولادته: لم يذكر أحد من المترجمين للشيخ شقرون تاريخ ولادته، غير أنني استطعت بتوفيق الله ــ الوقوف عليه. فإنه قد وصلنا نظمه في القراءات، وذكر أنه نظمه في السن العشرين من عمره. جاء فيه:

أقول لأستاذ يرى لي زلة فيصلحها بالصفح جوزيت أفضلا

وقل لعذول إن رآه بخطه ألا لبني العشرين عذر تقبلا[5]

وذكر أن الفراغ من تأليف نظمه كان عام تسعة وتسعين وثمانمائة (899هـ). قال:

وفي صفر تمامه عام تسعة وتسعين بعد الثمانمائة ولا[6]

فالحاصل من طرح عدد الأعوام التي بلغها عند الفراغ من النظم من عدد الأعوام التي مرت من الهجرة النبوية الشريفة، هوالعام الذي ولد فيه. وهو (879هـ).

وأما مكان ولادته فالظاهر أنه وهران، لأنه منتسب إليها، ولم نقف على شيء يدلنا صراحة على مكان الولادة، ولا على شيء يخالف أن تكون وهران المدينة التي ولد بها. إلا على نص وجدته عرضاً في كتاب مخطوط عنوانه «مختصر رحلة البلوي» وجاء فيه كلام للشيخ شقرون عن الخطبة التي كان يخطب بها أبوه، وهي خطبة منسوبة للقاضي عياض ذكر فيها

سور القرآن. قال شقرون: «ومن لفظه حفظتها وكان حفظها الوالد من خطيب كان عندهم بوهران»[7].

فقد يفهم من قوله: «كان عندهم بوهران» أنه لم يولد بوهران، وهذا الفهم غير مقطوع بصحته لاحتمال أن يكون الشيخ شقرون انتقل مع أبيه إلى فاس في سن الصبا والصغر. فقال: «عندهم بوهران» ولم يقل «عندنا» لأن إقامته بها لم تطل.

وفاته: بعد مسيرة من العلم والجهاد المضني في التدريس والتأليف، وإسداء النصح والإرشاد إلى عامة المسلمين، شاء القدر أن يأخذ الموت برأس شقرون الوهراني عام (929 هـ). وهوالتاريخ الذي يكاد يتفق عليه جلّ المؤرخين أمثال ابن مريم التلمساني[8]، وابن محمد مخلوف[9]، وعبد الحي الكتاني[10]. وقال ابن القاضي[11]، ومحمد بن جعفر الكتاني[12]: توفي قرب الثلاثين. ومكان وفاته مدينة فاس ذكره عبد الحي الكتاني[13].

حياته العلمية:

1- شيوخه: لم تذكر كتب التراجم سوى شيخين أخذ عنهما شقرون الوهراني. ولكننا نجزم أن له شيوخاً غيرهما، لأن مدينة فاس كانت عامرة بالعلماء فيبعد أن يكون شقرون الوهراني رضي بشيخين ولازمهما وانقطع عمن سواهما. لكن لا نعلم على التعيين إلا ثلاثة منهم. ونزيد عليهم رابعاً نفترض أن يكون من شيوخه:

1- أحمد بن أبي جمعة المغراوي أبو العباس: هو والد صاحب الترجمة، كان أحد أعلام وقته، وكان من أهل الفتوى، فلقد بعث إليه أهل الأندلس، بعد سطوة النصارى عليهم، يسألونه عن إخفاء الإسلام والتظاهر بالنصرانية خوفاً من بطش النصارى فأجابهم بما يقر هذا الصنيع. ونجزم أن شقرون أخذ عن أبيه، مع أن كتب التراجم لم تذكر أباه في شيوخه، ويدل على هذا ما ورد في «مختصر رحلة البلوي»، أن شقرون حفظ عن أبيه خطبة عياض التي فيها ذكر سور القرآن. قال شقرون: «ومن لفظه حفظتها وكان حفظها الوالد من خطيب كان عندهم بوهران»[14].

وأخذ أحمد بن أبي جمعة عن أعلام منهما الشيخ غانم بن يوسف الغمري، وله «جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض بين المعلمين وآباء الصبيان». توفي في العشرة الثالثة بعد المائة التاسعة[15].

2- أبو عبد الله محمد بن غازي العثماني: أشهر مشاهير وقته في فاس حاضرة العلم بالمغرب الإسلامي آنئذ. قال فيه ابن القاضي: «الفقيه المشارك المتفنن ذوالتآليف الحسنة والأحوال المستحسنة»[16] أخذ عن أعلام منهم أبوزيد الكاواني، وأبوالعباس المزدغي والإمام القوري وأبوالعباس الحبّاك وأبوعبد الله السراج وابن مرزوق الكفيف وعنه أحمد الدقون وعلي بن هارون، وعبد الواحد الونشريسي، وعبد الرحمن القصري الفاسي، والشيخ شقرون الفاسي وله تآليف منها: «المسائل الحسان المرفوعة إلى خبر فاس والجزائر وتلمسان» و«شفاء الغليل في حل مقفل خليل» توفي رحمه الله عام (919هـ)[17].

2- رحلته في طلب العلم: مما يجمع عليه عامة المؤرخين أنّ شقرون ولد بوهران ومنها انتقل إلى فاس رفقة أبيه. وسبب سفره عن وهران بدء غارات الأسبان عليها، ويرجح أن يكون السفر المذكور حصل قبل احتلال المرسى عام 911هـ.

واختار آل شقرون مدينة فاس عن سائر حواضر المغرب الإسلامي آنذاك. لأن حاضرة فاس كانت تعيش نوعا من من الاستقرار السياسي والاجتماعي والثقافي، على خلاف تلمسان مثلا التي كانت بين مد وجزر بين النصارى الإسبان والمسلمين[18] وهذا ما يشير إليه الدكتور أبوالقاسم سعد الله بقوله: «بالإضافة إلى التدهور الاقتصادي والسياسي شهدت تلمسان تدهوراً اجتماعياً وثقافياً، فقد هاجر عدد من عائلاتها الغنيّة والعلمية إلى المغرب الأقصى فراراً من الأسبان الذين تدخلوا في شؤون دولة بني زيان عند ضعفها السياسي، ثم فراراً من حكم العثمانيين عند استيلائهم بالقوة على تلمسان ومن العائلات الشهيرة التي هاجرت إلى المغرب الأقصى عائلة الونشريسي والمقري»[19].

3- تلاميذه: لقد أدت شهرة الشيخ شقرون الضاربة في الآفاق وتبوئه المكانة العلمية المرموقة، ورسوخ قدمه في فنون وعلوم شتى، إلى التفاف طالبي العلم حوله من أنحاء مختلفة. بالرغم من شحّ بعض كتب التراجم والتاريخ التي ترجمت له، عن تلاميذ درسوا وأخذوا عنه علومهم، إلا أن هذا لا يمنع من وجود تلاميذ لهذا الشيخ. فمدام هناك شيخ لابد من وجود تلاميذ؟.

ولو تفحصنا كتب التاريخ والتراجم لعلماء آخرين عاصروه أوتأخروا عنه لوجدنا ما يشفي غليلنا، فعلى سبيل المثال يذكر صاحب تاريخ الجزائر العام يفرد واحدا من هؤلاء التلاميذ قائلا: "كان رحمه الله محققاً ذا دراية فائقة في علوم الحساب والفرائض وعلم الكلام

والفقه وفن الرسم وضبط القرآن وتفسيره أخذ عن جماعة منهم الشيخ أحمد بن ملوكة الندرومي وشقرون أبي جمعة ومحمد بن موسى الوجديجي..."[20].

4- آثاره العلمية: من أهم الاختصاصات التي تفوق فيها الشيخ شقرون الوهراني علم القراءات وعلم الكلام وله أشعار مختلفة. ومن أهم مدوناته:

1- تقريب النافع في الطرق العشر لنافع[21]: وهوعبارة عن نظم في القراءات بيّن فيه طرق نافع العشر ووجوه الاختلاف بينها، ونسبه له الأستاذ المهدي البوعبدلي قال: «هوعبارة عن منظومة في القراءات لمحمد بن أحمد الوهراني.. وقد سمى منظومته: التقريب».ومما جاء فيها:

أقول لأستاذ يرى لي زلة ... فيصلحها بالصفح جوزيت أفضلا
وقل لعذول إن رآه بلفظه ... ألا لبني العشرين عذر تقبلا
فما مثلنا يعنى بهذا وإنما ... كفى المرء نبلا عد عيب له اقبلا
ولكنني إن شاء ربي مكمل ... بتشهير أوتوجيه ما كان مشكلا
وأسأل ربي العون والصدق والرضا ... وتسهيل ما رمنا لكل فيسهلا
وسميته «التقريب» كي قربة به ... أنال مع الآباء في جنة العلا[22]

2- تقييد على مورد الظمآن: و هوعبارة عن فوائد قيّدها مما تلقّاه عن شيوخه بفاس[23]، من تقاريرهم على «مورد الظمآن». وقد عزا له هذا التقييد الأستاذ محمد المنوني[24].

3- الجيش والكمين لقتال من يكفر عامة المسلمين: وهوعن كتاب لطيف كتبه في الجواب عن سؤال في تقليد العوام في العقائد هل يصح ذلك منهم أم لا؟[25].

4- قصيدة طويلة في رثاء ابن غازي: وهي قصيدة وصفت بالمشهورة والعظيمة والطويلة، قالها في رثاء شيخه ابن غازي وممن نسبها إليه أحمد بابا[26]، وابن القاضي.[27] وهي التي سنحاول تناولها من جوانب معينة.

5- توجد بعض الأشعار متفرقة تعالج أغراضا أدبية مختلفة: كالرثاء والمدح، ...يوجد بعضا منها مخطوطا بالمكتبة الوطنية الجزائرية[28].

وله مؤلفات أخرى يمكن اعتبارها في حكم المفقود، ومسؤولية البحث توجب علينا التنقيب عنها وإخراجها للباحثين. من جملتها على سبيل المثال لا الحصر:

6- فهرست: وهوعبارة عن مصنف ذكر فيه شيوخه وما رواه عنهم من فنون العلم. وهذا الفهرست غني بذكر ثلة من تراجم بعض الشيوخ الذين جالسهم[29].

7- المنظومة الشقرونية: لا نعرف عنها سوى اسمها وهي حسب الأخبار المتواترة في المأكولات والمشروبات، وقد يكون الكلام فيها عما في كل طعام أوشراب من خصائص ومنافع[30]. هذه ما علمت من كتبه الموجودة والمفقودة. وقد يكون له كتب غيرها.

5- مكانته العلمية: إذا نظرنا إلى الألقاب التي أثنى بها العلماء على شقرون الوهراني، بدا لنا أنه كان جليل القدر، علي الهمة، ذا قدم راسخة في فنون العلم العقلية والنقلية، له حل مقفلات ما أشكل. ويظهر لنا جليا من خلال تتبع تلك الألقاب التي أطلقها عليه المترجمون، ومن خلال تقصي ما ترك من آثار، أنه برز ونبغ في علم القراءات وعلم الكلام ونظم الشعر.

فهي أوصاف لقبية علمية عادة ما يطلقونها على من يتبحر في فن من الفنون أوفي بعضها أوفي جميعها. فمن الذين انفردوا بترجمته أحمد بابا التنبكتي بوصفه بالمقرئ الحافظ الضابط المتكلم. حيث قال فيه: «الأستاذ المتكلم المقرئ الحافظ الضابط»[31]. وقال فيه صاحب النور الزكية: «الأستاذ المتكلم القدوة المقرئ العالم العمدة»[32]. وقال فيه صاحب فهرس الفهارس: «الشيخ الفقيه العالم العلامة الأستاذ المقرئ المتكلم الحافظ المطلع المحقق المشارك».

ويدلّ تأليفه لكتابه «الجيش والكمين» مثلا على مدى تضلعه في علم الكلام أيضا، ونلحظ ذلك من خلال إجابته عن سؤال في التقليد، حيث أبرز فيه مكنوناته العقلية والنقلية وأجاب إجابة شاملة تامة ذكر فيها ما للعلماء من أقوال وما لكل واحد منهم من الأدلة، حيث زاوج بين أدلة أصول الفقه وأدلة علم الكلام، ويدل على ضلوعه كذلك في علم القراءات نظمه للطرق العشر وسنه لا يتعدى العشرين من عمره. ومما يدل على لهفه وشغفه باللغة الشعر تلك المنظومات التي نظمها. خصوصا تلك القصيدة التي رثى بها شيخه ابن غازي[33].

هذا باختصار عن أهم مدوناته العلمية ولربما هناك شيء منها يعتبر في حكم المفقود ونحن نحاول العمل جاهدين على البحث والتنقيب عما تركه أسلافنا من تراث علمي؛ لعله يكون لنا سندا وعونا في وقت ما.

التعريف بمرثي القصيدة:

ابن غازي المكناسي: هوالإمام الحافظ، العلامة المتبحر، الحجة المحقق، شيخ الجماعة، محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي، وبه عُرف، العثماني، نسبة لقبيلة من

كتامة، المكناسي ثم الفاسي، ولد في مكناس أواسط القرن الهجري التاسع، وقد اختلف في أي سنة كان ذلك بين سنة (841هـ) و(858هـ).

اعتنى بطلب العلم وتقييده وإسناده، ومجاورة العلماء والجلوس إليهم، فأخذ العلم بمسقط رأسه مكناس وبفاس بعد رحلته إليها- وكانت له رحلتان إليها استوطنها في الثانية- عن جلة من الأئمة كأبي العباس المزدغي، ومحمد بن الحسين النيجي الشهير بالصغير، والإمام القوري، وأبي عبد الله السراج، وابن مرزوق الكفيف، والشيخ عثمان الدِّيمي، وغيرهم ممن ضمت فهرسته الحافلة أسماءهم، والتي تكشف عن توسع المترجم في الأخذ وتنويعه فيه، فإنه نهل من علوم شتى وحاز فيها الرتب العلى، فهومتقدم في علم التفسير، والقراءات، والحديث، والرجال وطبقاتهم، والفقه، والحساب، والعربية؛ فاق في كل ذلك أهل وقته، وكانت له عناية بالسير، والتاريخ، والأدب.

وبعدما جمع ابن غازي من ألوان العلوم والفنون ما جمع، وسار مشاركا في جلها، قصده الطلبة للأخذ عنه وتنافسوا فيه، فجلس لإقراء العلم ونشره، فتخرج عليه ما لا يعد كثرة ولا يحصى عددا، منهم ابن العباس الصغير، وأحمد الدقون، والمفتي علي بن هارون، وعبد الواحد الونشريسي، وسقين الفاسي، واليَسِّيتني، وغيرهم من نجباء الطلبة.

ولعل كثرة طلبة المترجم يعود إلى ما اشتهر به من سعة العلم وجودة القريحة، وما تحلى به من آداب العلماء، وأخلاق الفضلاء، فإنه «كان عذب المنطق، حسن الإيراد والتقرير، فصيح اللسان، عارفا بصنعة التدريس، ممتع المجالسة، جميل الصحبة، سَرِيَّ الهمة، نقي الشيبة، حسن الأخلاق والهيئة، وعذب الفكاهة، معظما عند العامة والخاصة».

كذلك وصف أحمد بابا التنبكتي- وهوممن جلس إلى ابن غازي- أخلاقه، ومنهجه في درسه، وذلك ما أهله أيضا لأن يتولى رياسة العلم والفتيا بمدينة فاس، والخطابة والإمامة بجامع القرويين بها، وكان قد تولى خطابة مكناس قبل ذلك، ولم يكن في عصره أخطب منه، كما دأب أيضا، كلما حل شهر رمضان الكريم، على إسماع صحيح أبي عبد الله البخاري.

ولم يقتصر ابن غازي على الإقراء والإلقاء، بل كان له الحظ الوافر في تقييد العلوم والتصنيف فيها، فورَّث مصنفات تشهد له هي الأخرى بالتقدم والتفوق والسعة؛ إذ شملت أغلب فنون العلم المذكورة آنفا، فمن مصنفاته على سبيل الإجمال والمثال: «شفاء العليل في حل مقفل خليل»، كان متداولا شرقا وغربا، و«تكميل التقييد وتحليل التعقيد»، كمّل به تقييد

أبي الحسن الزرويلي على تهذيب المدونة للبراذعي، وحلّ مشكل كلام ابن عرفة في مختصره، و«حاشية لطيفة على الألفية»، و«منية الحساب» وشرحها المسمى «بغية الطلاب»، و«تقييد على صحيح البخاري»، و«الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون»، و«إنشاد الشريد في ضوال القصيد»، وهوعلى الشاطبية، وفهرسة شيوخه المسماة «التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد»، والتي حظيت باهتمام خاص من لدن العلماء، حتى قال أبوالعباس الهشتوكي في حقها:

وفهرسة ابن غازي مفيدةٌ... عليك بها فهي النهايةُ في الأمر

ولا عجب بعد كل هذا أن يحلي العلماء ابن غازي بجميل التحلية، ويثنوا عليه بما هوأهل له، فقد قال في حقه تلميذه عبد الواحد الونشريسي: "شيخنا الإمام الأثير السيد أبوعبد الله»، واستطرد في بيان مكانة شيخه وتقدمه في العلوم، وقال أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج: «وبالجملة فهوآخر المقرئين، وخاتمة المحدثين، ولم يزل باذل النصيحة للمسلمين"، وقال ابن قاضي المكناسي في درة الحجال: "الفقيه المشارك المتفنن، ذوالتآليف الحسنة، والأحوال المستحسنة"، وقال ابن عسكر في دوحة الناشر: "وعلى الجملة فهوإمام هدي يقتدي به ويثني على فعله البعيد الغاية من أهل المشارق والمغارب، له الشأن الذي لا يدرك، وفضائله أكثر من أن تحصى، وعلومه أعظم من أن تستقصى". فهذه شهادة حية على مدى تبحر الشيخ وتمكنه في حل مقفلات العلوم وما أشكل منها.

وفاته: لقد كانت وفاته– رحمه الله– في تاسع جمادى الأولى سنة (919هـ)، ودفن في عدوة فاس بالمغرب الأقصى، واحتفل الناس بجنازته؛ حضرها السلطان ومن دونه، وقد رثاه، على ما ذكر المنجور في فهرسته، تلميذه العلامة شقرون بن أبي جمعة في قصيدة مليحة.

التعريف بالمرثية:

1–موضوع المرضية وثمرتها: تخدم قصيدة ابن أبي جمعة الوهراني موضوع المراثي أورثاء العلماء والتباهي بعلمهم وفضلهم على سائر تلامذتهم الذين قرؤا على يديهم، فجاءت في نسق متكامل؛ ضمن رؤية جامعة تجمع بين التلميذ البار والشيخ المتفاني في علمه؛ فتجمع بين العالم والمتعلم.

فنراه في أحد أبياته يقول:

وَقَدْ خَلاَ قُطْرَهُ مِمَّنْ لَهُ سَنَدٌ عَالٍ وَمَعْرِفَةٍ خَالٍ عَنِ النَّظَرَا

بِمَوْتِ عَالِمِهِ الْأَعْلَى سَمَى سَنَا نَجْـلُ ابْنُ غَازِي إِمَامُ الْعُلُومِ يَدَا

فهو يعترف بعلم شيخه وتفقه في مجال العلم الشرعي بمختلف فروعه؛ ولا نظير لـه في بلده بالمغرب ولا يضاهيه أحد. وبموته عالم هذا البلد يفقد حلقة من حلقات العلماء. وهذا ما يجسده قوله:

لاَ يَقْدِرُ الآنَ شَيْخٌ أَنْ يَقُـومَ بِهِ فَمَا ظَنَنْتُ مَقَامَ الشَّيْخِ أَوعَشَرَا

فمن غير الممكن أن يأتي آخر ويحذوحذوالشيخ الأول مهما كانت مرتبته ومهما كـان علمه. وساق بعد كلامه هذا صورة أخرى مفادها أن الشيخ مهما كان مجلسه فلا يمكـن أن يعوض مجسدا ذلك في قوله:

لِلّهِ مَجْلِسُهُ فِيْ ذَاكَ يَا عَجَبـًا كَيْفَ العُلُومُ ثَرَتْ فِيْ التُرْبِ دُورٌ صَرَا

2–سبب تأليف المرثية: من خلال العنوان يتضح لنا أن سبب تأليفها يتجلى في نعي الـشيخ ابـن غازي المكناسي؛ الذي هوأحد شيوخ ابن أبي جمعة الوهراني؛ وتأثر هذا الأخير بشيخه أيما تأثر؛ فراح يعبر عن مكنوناته ومكبوتاته ضمن تنظيمه لمرثية يعزي بها شيخه وينوه بمآثره؛ ويذكر شيئا من خصاله. وتلك هي سنة القوم في علمائهم إذا كانوا يلازمونهم ومتأثرين بهم.

والناظر إلى واقع ذلك العصر أوما قبله يلحظ مدى تأثر التلميذ بشيخه وملازمته بغيـة تحصيل العلم الشرعي منه، بل يتعدى الأمر ذلك أحيانا فترى التلميذ يريد التشبه بـشيخه في الهيئة وفي طلب العلم.

وصف النسخ المعتمدة في التحقيق: اعتمدت في تحقيق "مرثية ابن أبي جمعة الوهراني" على ثلاثة نسختين خطيتين. نسخة من خزانة الشيخ الواجي محي الدين بن عـامر البرجـي، ونسخة من خزانة الشيخ البشير محمودي، وفي ما يلي وصف لما اعتمدناه من النسخ:

1.نسخة خزانة الشيخ الواجي محي الدين بن عامر البرجي:تقع هذه النـسخة ضـمن مجموع. وقد كتبت بخط مغربي واضح ومقروء. تقع في ورقة واحدة مـن الحجـم المتوسـط مقياس: 16/02سم، ذو مسطرة 19 سطرا، ولا توجد بهذه النسخة خروم. وقـد اعتمـدناها أصلا؛ لوضوح خطها وقلة الأخطاء بها. يوجد بها تاريخ النسخ واسم الناسخ.

2.النسخة الثانية:وجدناها بخزانة الشيخ البشير محمودي، وهي نسخة تامة كتبت بخـط مغربي حسن، تقع ضمن ورقة واحدة؛ ذومقياس:16/20، ذومسطرة 19 سطرا، وهي سالمة من الخروم بها تاريخ النسخ واسم الناسخ.

عملنا في التحقيق: لتحقيق متن القصيدة وإخراجها سلكنا الخطوات المنهجية التالية:

1.اتخذنا نسخة الشيخ الواجي محي الدين بن عامر البرجي هي النسخة الأصل ورمزنا إليها بحرف " أ"، ثم نقلت المتن وفق ما تستوجبه قواعد الإملاء والنقل، معتنيا بالمتن كما هو.

2.استعنا بنسخة الشيخ البشير محمودي ورمزنا إليها برمز"ب"، لحل مقفلان النص وتقويم أخطائه، وتلافي النقص فيه.

3.الساقط من نسخة "أ" أضفته من نسخة "ب".

4. عملنا على مقارنة النصوص ببعضهما البعض.

5.تخريج أسماء الأعلام وشرح بعض المفردات الصعبة.

قصيدة الشيخ سيدي شقرون بن جمعة الوهراني في تعزية الشيخ الزاهد العالم العلامة سيدي محمد بن غازي[34]

آه عَنِ الغَرْبِ[35] قَدْ حَطَّ الظَّلاَمُ بِهِ وَصَارَ مِنْ بَعْدِ صَفْوًا فِقْهُ كَدَرَا[36]

وَقَدْ خَلاَ قُطْرَهُ مِمَّنْ لَهُ سَنَدٌ عَالٍ وَمَعْرِفَة خَالٍ عَنِ النَّظَرَا

بِمَوْتِ عَالِمِهِ الْأَعْلَى سَمَى سَنَا نَجْلُ ابْنُ غَازِي إِمَامُ العُلُومِ يَدَا

قَدْ جَاءَنَا نَعْيُ ذَا الخَبَرِ العَظِيمُ فَلَمْ تَدْوِبِهِ إِلاَّ المُرُّ وَالصَبْرَا

وَاللَّهِ لَوْلاَ عِنَانَ الشَّرْعِ فِيْ جَدِّنَا[37] عَنْ لَطْمِ خَدٍّ وَشَقِّ الجَيبِ مُنْخَدِرَا

لَكُنْتُ مِمَّنْ يَشُقُّ الجَيبَ فِي حَزَنٍ وَيَلْطِمُ الخَدَّ لَكِنْ شَرْعَنَا حَضَرَا

فَمَا بَقِيَ بَعْدُ إِلاَّ الصَّبْرَ عَنْ عَجَى[38] تَنَالُ أَجْرًا بِهِ حَقٌّ لِمَنْ صَبَرَا

حقٌّ إِلَيْكَ وَنِدَاءُ النَّفْسِ يَا أَسَفَا وكَيْفَ لِأَنَّ مَنَارَ العِلْمِ قَدْ دُثِرَا[39]

قَدْ كَانَ بَحْرُ عُلُومٍ جَمَّةٌ جَمَعَةٌ فِيهِ فَمَا أَنْ قَرَأَ مِنْ مِثْلِهِ بَشَرَا

أَنْعَاهُ لِلْمُعْلِيَةِ العُظَمَا وَمَجْلِسُهَا حَضَرُوا بِحِكَايَةٍ لِمَنْ عَبَرَا

لاَ يَقْدِرُ الآنَ شَيْخٌ أَنْ يَقُومَ بِهِ فَمَا ظَنَنْتُ مَقَامَ الشَّيْخِ أَوعَشَرَا

أَمَّا الرِسَالَةُ[40] إِنْ تَسْأَلْ مَسَائِلُهَا قَالَتْ وَأَيْنَ الذِّي يُبْدِي لِيَ الخَبَرَا

نَظَائِرُ مُشْكِلاَتٍ كُلُّهَا اجْتَمَعَتْ فِيْ نَظْمِهِ بَابَهُ مِنْ عَالِمٍ قَبَرَا

يَا شَيْخُ يَا سَيِّدُ يَا زَيْدَ ابْنَ أَبِي زَيْدٍ[40] تَعْرِفُ بِأَنَّ الْعَالِمَ حْتَضَرَا

خَلِيلٌ إِنْ جِئْتَ تَبْغِ حَلَّ مُقْفَلَةٍ[41] ففي شِفَاءِ الغَلِيلِ الصُّبْحُ قَدْ ظَهَرَا

كَذَا مُدَوَّنَتُهُ وَالسَّارِحُونَ لَهَا حَقُّ الغَذَاءِ لَهُمْ مِنْ بُدُورٍ وَمُرَا

أَمَا لِدَيْنٍ مَنْ يَقْـــرَأُ مُوطَؤُكُمْ[42] وَيُتْقِنُ اللَّفْظَ فِيهَا لِيَ فِيْ مَا ظَهَـــرَا

لِلّٰهِ مَجْلِسُهُ فِيْ ذَاكَ يَا عَجَبـــاً كَيْفَ العُلُومُ ثَرَتْ فِيْ التُّرْبِ دُورٌ صَرَا

أَنْعَاهُ لِلْغَرْبِ أَنْعَـــا وَشَارِحُهَـــا نَجْـــلُ مَرْزُوقٍ وَالْبَحْرُ الذِّي بَهِـــرَا

أَسَيِّدٌ يَا بْنَ مَرْزُوقٍ[43] عُلُومُكَ قَدْ جَعَلَتْهَا سَبْعَةً فِـــي الشَّرْحِ مُقْتَعِـــرَا

انتهت هذه القصيدة على يد كاتبها محي الدين بن مكي بن أبي علام بن أحمد بن علي بن عامر البرجي وطنه ومسكنه. اللهمّ اغفر للكاتب ولأجداده ولإخوته ولأشياخه ولأصهاره. آمين يا ربّ العالمين. عام 1246هـ/1830م.

الهوامش:

1-ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج7، ص: 511.

2-تطرق إلى نسب محمد بن عمر الهواري، محمد بن يوسف الزياني دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص: 37.

3-ابن القاضي، درة الحجال في أسماء الرجال، (93/1).

4-محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران، ص: 37ـ38.

5-انظر: المهدي البوعبدلي، اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات في القديم والحديث، مجلة الأصالة ـ الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي سنة 1981، الجزائر، ج1، ص: 152.

6-المرجع نفسه، والصفحة ذاتها

7-البلوي، مختصر رحلة البلوي، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2962، (65/و).

8-ابن أبي مريم التلمساني، البستان في معرفة العلماء والأولياء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1985م.ص: 115.

9-محمد ابن مخلوف شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط1، 1349هـ، ج1، ص: 276.

10-عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس (493/2).

11-انظر: جذوة الاقتباس ص: 204.

12-سلوة الأنفاس (280/3).

13-انظر: فهرس الفهارس، المرجع السابق، (494/2).

14-البلوي، مختصر رحلة البلوي، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 2962، (65/و).

15-انظر ترجمته في: دليل الحيران ص: 57، بن عودة الآغا المزاري، طالع سعد السعود، ج1، ص: 86، اليواقيت الثمينة، ج1، ص: 16، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 19.

16-انظر: ابن القاضي، درة الحجال، ج2، ص: 147

17-انظر ترجمته في: ابن القاضي، درة الحجال، ج2، ص ص: 147 ـ 148، أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج ص ص: 581 ـ 583، ابن مخلوف، شجرة النور الزكية ج1، ص: 276.

18-لقد عرفت تلمسان حروباً: مرة بين الزيانيين والأتراك ومرة أخرى بين الزيانيين والأسبان، لذلك كثرت الهجرة من وهران إلى فاس.

19-أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص: 171.

20-أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر العام (108/3).

21-ينسب أبو القاسم سعد الله إليه هذا النظم. قائلا: "وفي نهاية القرن التاسع ألف محمد شقرون بن أحمد المغراوي المعروف بالوهراني عملاً في القراءات أيضاً سماه: «تقريب النافع في الطرق العشر لنافع»". ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ص: 22. وينظر: المهدي البوعبدلي، اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات في القديم والحديث، "مجلة

الأصالة"، الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي، ط1981، ج1، ص: 151. وتوجد نسخة كاملة مخطوطة لهذا النظم بالمكتبة الوطنية الفرنسية، في قسم المخطوطات العربية، تحت رقم: 4532.

22–المهدي البوعبدلي، اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات في القديم والحديث، "مجلة الأصالة"– الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي سنة 1981، ج1، ص: ص: 151-152

23–انظر: دليل المخطوطات دار الكتب الناصرية بتمكروت، ص: 15.

24–جاء في معجم أعلام الجزائر"... مقرئ حافظ له «الجيش الكمين في الكر على من يكفر عوام المسلمين» و«تقييد على مورد الظمآن»". وتوجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بالخزانة الحسنية بالمغرب الأقصى ضمن مجموع تحت رقم: 6/74. انظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، ص: 79.

25–وتوجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بالمكتبة الوطنية الجزائرية في قسم المخطوطات تحت رقم: 2301. وتوجد نسخة أخرى منه في المغرب الأقصى بخزانة القرويين تحت رقم: 1515/7.

26–انظر: أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج ص: 583.

27–وتوجد نسخة من هذه القصيدة مخطوطة بالمغرب بدار الكتب الناصرية بتمكروت تحت رقم: 2088.

28–توجد هذه الأشعار ضمن مجموع، بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 212.

29–وقد نسبه ونسبه له ابن القاضي. قال: "وله جزء لطيف جمع فيه مروياته". ينظر: درة الحجال ج2، ص:151. وذكر أن له سنداً يتصل بمرويات شقرون. قال صاحب فهرس الفهارس: " عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس، فهرس الفهارس ج2، ص:394. وذكر هذا الفهرست أيضاً محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني فقال: "وله رحمه الله جزء لطيف جمع فيه مروياته".

30–نسبها إلى محمد بن يوسف الزياني. قال:"ومنهم الشيخ شقرون الفاسي تلميذ ابن غازي ذوالتآليف العديدة... منها المنظومة الشقرونية في المأكولات والمشروبات".

31–أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ص: 199.

32–ابن مخلوف، شجرة النور الزكية، ج1، ص: 277.

33–فقد وصفها محمد بن جعفر الكتاني بأنها عظيمة. قال: "أخذ عن الشيخ الإمام أبي عبد الله بن غازي وهوالذي رثاه يوم وفاته بقصيدته العظيمة المشهورة". ووصفها أحمد بابا التنبكتي بأنها طويلة مليحة. قال: "ورثاه تلميذه العلامة شقرون بن أبي جمعة الوهراني بقصيدة مليحة تركتها لطولها". محمد بن جعفر الكتاني، ساوة الأنفاس، ج3، ص:280.

34–أبوعبد الله بن غازي(941-199هـ): نجده في كتابه "الروض المتون في أخبار مكناسة" يعرّف بنفسه ويذكر الكثير من أخباره وأحواله، من خلال، ما خطّه بقلمه في فهرسته وما بثه عن نفسه وعن أهل بيته وغيرهم. فهو" محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن غازي العثماني منسوبا لآل عثمان، وهومن قبيلة كتامة حسبما ذكر ذلك ابن خلدون في كتاب العبر"، وقد ذكر الشيخ أبوالعباس المنجور في فهرسته سنة ميلاده فقال: "وولادته –على ما أخبرني الشيخ المسن المؤرخ أبوالحسن الصيقال أحد عدول مكناسة– سنة إحدى وأربعين من التاسعة".

35–يقصد، بالغرب عدوة المغرب الأقصى.

36–كلرا: بمعنى الكلر: خلاف الصفو. وقد كلر الماء بالكسر يكلر كلرا، فهوكلر وكلر أيضا، مثل فخذ وفخذ. وأنشد ابن الأعرابي: لوكنت ماء كنت غير كلر. إسماعيل بن حماد الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين –بيروت، الطبعة: الرابعة 1407 هـ – 1987 م، مادة (كدر)، ج2، ص: 803.

37–يشير إلى نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن اللطم. جاء في الحديث أنّ النبي الله صلى الله عليه وسلم قال: ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية لفظهما سواء رواه البخاري في الصحيح عن أبي نعيم. مبسوطة أوبياض كفه يقال لطمت المرأة وجهها. أبوبكر البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، تح: محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة، ط 1994م، ج4، ص: 64، رقم: 6909. أنظر: إبراهيم مصطفى– أحمد الزيات– حامد عبد القادر – محمد النجار، المعجم الوسيط، تح: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة، دمشق، ج2، ص: 827.

38–عجى: قولهم للأمّ: هي تعجُو ولدَها، وذلك أن يُؤخَّر رَضاعُه عن مَواقيته، ويُورِث ذلك وَهْناً في جسْمه. قال الأعشى:

مشفقاً قلبُها عليه فما تعـ *** ـجُوه إلاّ غُفافَةً أوفُواقَ

أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكَرِيّا، مقاييس اللغة، تح: عبد السّلام محمد هَارُون، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1423 هـ = 2002م، ج4، ص: 196.

39–دثر مادة (د ث ر): الدَّثَارُ بالكسر وكل ما كان من الثياب فوق الشعار وقد تدثر أي تلفف في الدثار وتَدَثَّرَ الرسم درس وبابه دخل وتَدَاثَرَ أيضا، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تح: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون –بيروت، ط1995، ص:218.

40–يقصد رسالة ابن أبي زيد القيرواني على مختصر خليل في مجال الفقه.

41–ابن أبي زيد (310–386 هـ):عبد الله بن عبد الرحمن النفراوي، القيرواني، أبومحمد: فقيه، مفسر من أعيان القيروان. مولده ومنشئة ووفاته فيها. كان إمام المالكية في عصره. يلقب بقطب المذهب وبمالك الأصغر. قال عنه الذهبي: كان علي أصول السلف في الأصول لا يأول. من تصانيفه:((كتاب النوادر والزيادات))؛ و((ومختصر المدونة))؛ و((وكتاب الرسالة)) معجم المؤلفين 73/6؛ والأعلام للزركلي 230/4؛ وشذرات الذهب 131/3.

42–من قفل: وفعله الإقفال وقد أقفل الباب وأقفل عليه فانقفل وانقفل والنون أعلى والباب مقفل ولا يقال مقفول وفي حديث ابن عمر: أربع مقفلات: النذر والطلاق والعتاق والنكاح. أي لا مخرج منهن لقائلهن كأن عليهن أقفالا فمتى جرى بهن اللسان وجب بهن الحكم. أبوالفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج1، ص: 4751.

43–مالك بن أنس بن مالك الأصبحي: ولد سنة خمس وتسعين من الهجرة ومات سنة تسع وسبعين ومائة وله أربع وثمانون سنة، من تصانيفه الموطأ. محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)، طبقات الفقهاء، تح: طبقات الفقهاء، دار الرائد العربي، بيروت، ط1، 1970. ص: 68.

44–ابن مرزوق العجيسي محمد بن أحمد التلمساني (ت781) بالقاهرة؛ تلقى دراسته بالشمال الإفريقي، وبمصر والشام والحجاز، ومن أساتذته بالمدينة، كل من عز الدين الواسطي؛ ويحيى المغراوي وابن فرحون التونسي وهوعالم موشارك واسعة، وشرح الشفائي خمسة أجزاء (بوغوطة بألمانيا) دون أن يتممه، وله مؤلفات أخرى في الحديث والفقه. ومن تلاميذه لسان الدين بن الخطيب، وإبراهيم التازي وابن قنفذ القسنطيني. أنظر ترجمته في: الإحاطة، ج3، ص ص: 103–130 ؛ ابن خلدون، التعريف، ص:842 ؛ المقري، نفح الطيب، ج7، ص ص: 309–338.

المصادر والمراجع:

أ/ المصادر المخطوطة:

– البلوي، مختصر رحلة البلوي، مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم:2962. (65/و).

– تقييد على مورد الظمآن، نسخة مخطوطة بالخزانة الحسنية بالمغرب الأقصى ضمن مجموع تحت رقم: 6/74.

– الجيش الكمين في الكر على من يكفر عوام المسلمين، نسخة مخطوطة بالمكتبة الوطنية الجزائرية في قسم المخطوطات تحت رقم: 2301. ونسخة أخرى منه في المغرب الأقصى بخزانة القرويين تحت رقم: 1515/7.

– نسخة مخطوطة بالمغرب بدار الكتب الناصرية بتمكروت تحت رقم: 2088.

– توجد هذه الأشعار ضمن مجموع، بالمكتبة الوطنية الجزائرية، تحت رقم: 212.

ب/ المصادر المطبوعة:

– أبوالقاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1998، ج2.

– أحمد المنجور، فهرس أحمد المنجور تحقيق محمد حجي –نشر دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر –الرباط: 1976.

– عبد الله كنون، ذكريات مشاهير رجال المغرب، ابن غازي، العدد: 12 نشر دار الكتاب اللبناني، بيروت –لبنان.

– عبد الحي الكتاني، فهرس الفهارس والإثبات ومعجم المعجمات والمشيخات والمسلسلات، تحقيق الدكتور إحسان عباس، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2: 1402هـ 1982م، ص: 134.

– محمد ابن مخلوف، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط1، 1349هـ ج1.

– محمد الزاهي، فهرسة الشيخ ابن غازي تحقيق، مطبوعات دار المغرب، الدار البيضاء: 1399هـ – 1979م، ص: 10.

– محمد بن غازي، الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط.

– ابن مريم المديوني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان لمحمد بن محمد المعروف، نشر المطبعة الثعالبية بالجزائر 3261هـ

– محمد بن جلال الدين المكرم (ابن منظور)، طبقات الفقهاء، تح: طبقات الفقهاء، دار الرائد العربي، بيروت، ط1، 1970.

– محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، تح: محمود خاطر، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1995.

– محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

– المهدي البوعبدلي، اهتمام علماء الجزائر بعلم القراءات في القديم والحديث، مجلة الأصالة – الملتقى الخامس عشر للفكر الإسلامي سنة 1981، الجزائر، ج1.

– محمد ابن مخلوف شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي بيروت لبنان، ط1، 1349هـ ج1.